المعاناة في شعر بدر شاكر السَّيَّاب

د. منيرة ذياب عبد الكريم أحمد عودة

المقدمة

ربما يتساءل الكثير لم تختار باحثة في ريعان شبابها هذا الاتجاه أو هذه الظاهرة ؟
وربما يتبادر إلى كثير من الأذهان لم هو دون غيره تتناوله بالدراسة ؟

أكان شخصًا عاديًا أم كانت ظاهرة فرضت نفسها على الأدب وأخذت لها حيزًا بين الأدباء بل على رأس هذه النخبة من الأدباء إن لم يكن هو في المقدمة ؟ المعاناة في شعر بدر شاكر السياب الشاعر العراقي في بلد ذات حضارة وذات تقلبات. كيف لها أن تبعد عن شخص يحس ، ويرى بكل أحاسيسه ويبصر ما لا يبصره الآخرون ؟

ومن يدرك ألم المعاناة بقدر من يمر بها و يتذوقها ؟ معاناة مركبة على أسس لم تكن واهية يتخطاها بل كل يوم يمر تزداد صلابة ، إنه السيّاب الذي ساهمت البيئة في تكوينه وفي بناء شخصيته ، وصقل شعره إلى آخر رمق في حياته . وهل كانت تلك المعاناة بمنأى عن بقية الشعراء الذين شعروا بذاتهم ، وبمن حولهم وكانوا أكثر من غيرهم تأثرًا بالمحيط ؟ هل كان وحده من عانى من تلك الفروع التي رسمت له خريطة حياته ؟

هل كان المرض هو من تفرد به ؟ أم الإخفاق في الحبِّ هو وحده من عانى من أشواكه ؟ أم أن الواقع السياسي وحده للعراق من عانى منه وهو وحده من داسته أقدام التيارات والحكومات المتقلبة ؟ لا بل هناك على قارعة الشعر من لاذ بالوحدة ، وهناك من مرض وراح ضحية الدَّاء وترك خلفه زوجة وطائفة تشدو بشعره حتى هذه اللحظة ، إنَّه الشَّابي فمن يغيب عن خاطره ذلك الشاعر، الشاعر بالنفوس وبالطبيعة التي تحاكي الجمال والحب وفيها الشفاء للقلوب .فهل كان السيّاب شخصية لها القابلية أكثر من غيرها لمثل هذه المعاناة ؟

منهج البحث

هو استقراء لظاهرة المعاناة البارزة في شعر بدر شاكر السياب باعتبار :

- المعاناة ظاهرة أدبية متأصلة في الأدب شعره ونثره كون الأدب تعبيرًا عن الشعور
- المعاناة في شعر السَّيَّاب "نموذجًا لبّى قدرة الشعر الحديث على استيعاب الظاهرة وخصوصا عند السَّيَّاب كطابع ذاتي وحياتي. وقد رأيتُ أن أطرح المشكلة على شكل فرضية هي :

× لماذا السياب دون غيره ؟
× ما المعاناة التي حركت وجدان الأدباء حتى بحثوا عنها بين سطوره ؟
× كيف أثرت الحياة وانعكاساتها على السياب ؟

وللإجابة عن تلك التساؤلات "الفرضية" اتبعت الطريقة العلمية المعروفة في حلِّ المشكلة وهي تجميع المعلومات وتقميشها من مصادر مختلفة أصيلة وثانوية ومن دراسات سابقة أجريت حول هذه الشخصية .ومن هنا تسير الخطوات نحو عملية البحث راجين من اللّه أن يوفقنا لما فيه الخير للجميع .

أهمية البحث

إن المعرفة الإنسانية ليس لها حد ... وإن المعاناة التي يمر بها المرء ليست من صنع يد واحدة ، بل هي عوامل تجمعت على النفس فأرهقتها ؛ لذلك فإني آمل أن أضع أناملي على جروح الروح لأرى أي يد تجرأت لكسر نفس تفردت برؤية الدنيا من منظار آخر يضج بالألم ؛ لتفيض علينا ببعض ما بخل به الآخرون ، وأن تلك الكلمات هي ليست مجرد حروف باردة فارقت الشفاه ولكنها

عصارة ألم أصاب قلب فبكى ،وأبكى ووصل مسامعنا فبكت قلوبنا ... و القصد من هذه الدراسة هو إبراز عوامل الألم وأسباب المعاناة .وحسب معرفتي البسيطة فإن الدراسة التي سأتناولها ستكون فريدة من نوعها وتتناول جوانب معاناته التي أنتجت هذا الأدب الفريد من نوعه .

- كما أن محدودية الدراسات السابقة كانت دافعاً للخوض في هذا المجال وقد تبادر على ذهني كثير من التساؤلات :
- هل هي أول دراسة تخوض في هذا الموضوع ؟
- ما حجم الدراسة من حيث التغطية للموضوع ؟
- هل ترقى إلى مستوى الدراسة الأكاديمية المتكاملة "الإحاطة" ؟

كما أن أهمية الدراسة تأتي من طموحي بأن تسهم في إثراء المكتبة الأدبية بما يعين الدارسين على التواصل مع الأدب المعاصر.

بَيْنَ يَدَيّ الْمُعَانَاة

تصب كلمة المعاناة عبر تقلباتها واشتقاقاتها واستخداماتها في مجرى واسع ، روافده المكابدة والتعب والمشقة ، والحبس ، والتقييد ، والخضوع والذلّ وما ينتج عنها من آلام ،.... ففي لسان العرب لابن منظورٌ ، تقرأ "عانى الشيء : قاساه ، والمعاناة "المقاساة "

" والعناء هو التعب ويجوز أن يكون من الحبس عن التصرف "وعنّيته " إذا أسرته وحبسته " ومنه يقال للعاني : الذليل " الأسير ". وفي الحديث :" عودوا المرضى وفُكوُا العاني " ولا أراه مأخوذاً إلا من الذل والخضوع ".ومنه قوله - تعالى :" وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً "

وبالنظر للدلالات التي قدّمتها المعاجم اللغوية نجد أن المعاناة حالة تجلب لصاحبها التعب والمشقة ، وتجعله أسير الضعف والمكابدة ، والعجز والاستسلام لظروف معينة لا يستطيع تجاوزها أو الانتصار عليها لكنها عند الشعراء تغدو منبعاً وملهماً لهم يحرّك القرائح عندهم ؛ فيجودون بأصدق الشعر وأعذبه وأجوده .فقد سئل أعرابي :ما بال مراثيكم أجود أشعاركم ؟ فرد : "لأننا نقولها وأكبادنا تحترق "

وفي هذا الرّد إشارة قوية إلى دور المعاناة والألم في الإبداع الشعري ، وما له من تأثير في النفوس ، وهذا يدعو إلى اقتناص صور من المعاناة في الشعر العربي القديم مربوطة بروافدها ، وخيوطها التي جعلت العربي تتحرك شاعريته فيجود بأصدق ما عنده .وللمعاناة روافدها التي لا تنضب ، وخيوطها المتداخلة فقد تكون وليدة المآسي والفواجع والكوارث التي تحل بالشخص وقد تتأتى من غربة نفسية لا ينسجم فيها الإنسان مع واقعه والمحيط الذي يحيا فيه ، وقد تكون وليدة حالة مرضية، وظروف اجتماعية وسياسية قاهرة كالفقر والحرمان والضيق ، حياة القهر والإحساس بالظلم ، ومصائب الدهر كما كان يصفها الشعراء العرب في القديم .

والناس صنفان في مواجهة المعاناة ، فهناك من تغزوه المصائب والفجائع ويتماسك أمامها ويسعى إلى تجاوزها أو الانسجام مع محيطها ،فيبدي جلداً ويعتاد عليها كتجربة الدكتور طه حسين الذي كانت عاهة العمى والفقر والحرمان منطلقاً لنجاحات كثيرة ، وتحقيق ما يعجز عنه الآخرون وهذه الفئة شعارها قول الشاعر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب

وهناك من تستبد بهم المعاناة وتتحكم بصاحبها .خاصة إذا كان شديد الحساسية وسريع التأثر، وضعيف الشخصية وخاوي العقيدة ، وربما يحمّل الدنيا والآخرين مسؤولية ما حلّ به ، ويصبح لسان حاله ما قاله المعرّي :

تعبٌ كلّها الحياة فما أعجب
إلا من راغب في ازدياد

وقوله :

هذا جناه أبي عليّ
وما جنيت على أحد

بطاقة تعريف بالشاعر

عندما تذكر كلمة " السياب "يتبادر إلى الذهن أن المقصود هو الشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب الذي حمل راية التجديد في الشعر